خارج الدنيا

القصة الفائزة بالجائزة الثانية لنادي القصة

بقلم : أسامة أنور عكاشة

حين ينتهي اللص .. وتغلق صناديق الطاولة تراهم وقد استداروا جميعا بمقاعدهم حول النافذة الواسعة في ركنهم الأثير هناك .. في ذلك المقهى المطل على طريق الكورنيش في الاسكندرية .

مجموعة الوجوه الحالدة التي تجتمع في نفس المكان منذ زمن بعيد .. ربما امتد الى سنوات طويلة .. حتى اصبحت ملامحها تتوافق في اتساق عجيب مع الزخارف الخشبية المائلة على جدران المقهى وواجهته الخارجية وكأنها جميعا ألوان مختلفة في لوحة واحدة .

وفي المقهى مجموعات .. وشلل .. أخرى لاشك أن لها بدورها امتدادا في الأصالة والقدم .. ولكل منها بالأخرى صلات تمر بأطوار تبدأ بالتحية وتبادل الصحف وتنتهي أحيانا بشيء من الاقتراض المؤقت وتبادل أفراد الشلة .. والأمر عادة لا يتطور أكثر من ذلك .. فكل مجموعة تتسع بخاصية الالتفاف حول الذات وتستخدمها في الوقت المناسب اذا بدا في الأفق « خطر الخطف » أو العزو .

ولكن مجموعة النافذة .. هي على وجه التقريب أبرز مجموعات المقهى وأشدها اغراء لمحاولات العزو الا أنها في نفس الوقت اقدرها على ابعاد المتطفلين الذين يحاولون الانضمام اليها والذين تتناثر موجاتهم عبر الايام بلا جدوى .

لهذا كان أمرا غريبا أن يستطيع ذلك الغريب عن الشلة بل عن المقهى كله أن يتسلل اليها في أيام قلائل ليصبح من أبرز الشخصيات فيها .

لم يكن شابا لتجذبهم اليه الذكريات ولم يكن مرحا ليتحدوه واجهة لأحزانهم، بل ولم يكن يتمتع بتلك الصنعة التي يطلقون عليها «قوة الشخصية» .. على العكس .. ربما .. كان صمتيا .

فالسيد/راضي بلغ من العمر تلك المرحلة التي لاتستطيع فيها ان تعرف اذا كان في الخمسين او تعدى الستين .. ضئيل .. قمئ .. أبرز مافيه رأسه التي يبدو واضح الصلعة بالقياس الى حجمه والذي خلا من الشعر الا بعض ما خلفته السنون .

شيء واحد فقط يجعلك تحس بالميل

الى هذا الرجل ... شيء يتهدد في قسماته ويتهدج في نبرات صوته .. شيء يجعلك تحس نحوه بعاطفة الاشفاق .. جادية عربية ... تشعر فيها بضعفه وكثرة مشاكله وحاجته لمن يواجهها معه ! هكذا تسلل السيد/راضي الى الشقة واصبح بين يوم وليلة مركز الالتفاف فيها .. منه تبدأ المناقشات وتتفرق بين الجميع ثم تتجمع وترتد اليه من جديد .

وبعد أن ينتهي اللعب كل ليلة وتبعد ضحكات الطالب وتهدأ ثورة المهزوم ... تبدأ ـ وكأنها روتين محتوم ـ المناقشات المعتادة .. بطريقة تؤدي حتما الى السؤال الذي يقال كل ليلة منذ ان جاء الواقد الجديد ..

ـ ازى الاحوال النهارده ياراضي بك ؟

ويتنهد السيد/راضي .. ويبدأ في عرضه اليومي لمشاكله .

وهو رجل صريح لايطيق كتمان شيء مما في نفسه .. ومنذ اليوم الاول عرفوا عنه كل شيء فهو كما اخبرهم وكيل الادارة المالية بالمحافظة ، موظف درجة ثانية له شاب .. وأب لضابط في البحرية وطالبة في الجامعة .. وحالته المالية لاباس بها .. ورغم كل ذلك فله مشاكله .. ومتاعبه .. متاعب ومشاكل هي في الواقع كل كيان السيد/راضي ووجوده على الاقل في نظر رفاقه الجدد .. لاشيء يعرفونه عنه غير ذلك .

مشكلة زواج .. ومتاعب رفعت الابن والابنة .

زواج لاتريد أن تتزوج .. ورفعت يريد الزواج بفتاة يونانية .

هو لايهمه موضوع رفعت الى حد التازم والألم ... فقط يحس بالقلق ... وهو يردد دائما ان رفعت رجل .. رجل ناضج يتحمل مسئولية نفسه .

ـ طيب ده راجل .. هو حر .. عقله في راسه يعرف خلاصه .. يجوز احريجية ولا حتى صدية أنا خلاص عملت اللي علي انما البيت يا جماعة مش عارف اعمل معاها ايه .. دي في رقبتي .. حالها لغاية دي الوقت تلات عرسان .. وكل ما اكلمها تقول مش عايزه اتجوز .

ـ يمكن بتحب يراضي بك ؟

... والعجيب أن هذا التعليق اثار في وجه الرجل انفعالا معبرا لما توقعه الجميع كان ينتظرون منه شيئا من الغضب أو حتى السخرية والتهكم .. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث .. بل رأوا جميعا اشراقة عريضة تفرض نفسها على وجهه فتبدو واضحة رغم محاولته المستميتة لمنعها .

ـ طيب وافرض انها بتحب يا سيدي ماتقول .. انا ابوها .. ومن صغرهم وانا بعاملهم زى اخواتي .. دلوقت بيسطرولي كصديق .. أنا ربيتهم تربية متالية .. ويوم امهم ما ماتت مخلتهمش يحسوا بغيابها ومفكرتش أبدا أحملهم مرات أب في البيت .. يعني قصدي ولا مؤاخذة ان محدش فيهم بيحتي على حاجة .. لا الواد ولا البنت رفعت نهار ماجاب البنت الاحريجية قال لي .. طيب تصدقوا بايه ؟ انه لما كان بيعرف انه هيغيب في البحر يقولي ان صوفي حتتصل بالتليفون ياباما وقولها كذا .. كذا ..

وينطلق من الجميع تعليقات الدهشة ويذكر كل منهم طرفا عن علاقته السيئة

باولاده . ويهتمون السيد/راضي بحرارة بشوربها حسد لاحظونه ، وهم بعد ذلك قد لمسوا الموقف .. وتقصوا المشكلة . وراحوا يحاولون تلخيص تجاربهم وآرائهم في حلول يقدمونها لرميلهم الذى لم يصدر حكما ولا رايا ، بل كان يتلقى كل شيء في حياد تام ثم يبدأ مرة أخرى في عرض المشكلة .. وهو في كل مرة يجد لها جانبا جديدا يستأثر باهتمام الجميع ، ويحاول دائما أن يجددها في كل جلسة .. بل لقد كان يبدو انه يحس بلذة عميقة في حديثه الدائم عن رجاء ورفعت .. بتلك اللهجة الضعيفه المليئة بالاستعطاف وطلب المساعدة .

كانت عيناه تبرقان دائما بتلذذ عارم وهو يطالبهم بأن يساعدوه في ايجاد حل يريح ضميره ويضمن مستقبل البنت على الخصوص .

ولم تمض فترة طويلة حتى بدأت تلك اللذة تبرق في عيون الجميع كلما اجتمعوا لمناقشوا الموضوع .

كلهم تقريبا .. وتقريبا لان الأمر كان يختلف قليلا بالنسبة لأحدهم .

فجأة سطع نجم السيد/راضي في سماء الشلة أحمى ذلك بريقا آخر لنجم قديم كان قبل حلول الوافد الجديد مركز التجمع والالتفاف وهو وان كانت جاذبيته من نوع آخر يختلف عن جاذبية السيد/ راضي الا انها لم تستطع الصمود لها ..
لقد كان نفوذ محجوب افندى يعتمد فيما مضى على قدرته الخارقة في «التنكيت» .. والسخرية من كل شيء ومن كل انسان، وقدرته ـ وهذا هو المهم ـ في تذييع الأكاذيب المكشوفة التي يصر دائما على صحتها رغم علمه بأن الآخرين لايصدقونها ورغم اعترافه احيانا بانها من خلق ساعات التجلي التي يهيئها له « يني » «يارمان» المقهى .

شيء واحد كان محجوب افندى يرفض دائما الخوض فيه أو الحديث عنه ، وهو متاعبه العائلية .. بل كان يغضب اذا حاول أحد الجالسين حوله أن يسأله عنه ـ مع أنهم جميعا يدركون مما سمعوه في المنزل وما أخبرهم به « يني » أن الرجل يعيش في مأساة .. زوج مريضة مقعدة وابن «بلطجي» يباشر الأوعاد ولا يرور المنزل قدر زيارته لقسم الشرطة ، وابنة مطلقة معلقة باطفال ثلاثة ونفقايا النفقة المرهقة .

كل هذا ومحجوب افندى يرفض أن يشكوا أو يطلب المواساة .. حتى الحس أيضا لم تستطع أن تحل عقدة لسانه .. وصاقوا بتكتمه .. فصاقوا أيضا باكاذيبه وتشيعاته ، وما ان ظهر السيد/راضي بصحبته وكثرة شكواه ودعوة المشاركة الملحة في حديثه حتى حلا له الجو .. ويوم في تحالف غير منظور بقيادة الجلسات المسائية في الركن المعهود عند الشرفة ، وتقهقر محجوب افندى وانتقل من مركز الدائرة الى نقطة ماق محيطها .

الان فقط كان محجوب افندى هو الوحيد بينهم الذي يرفض في اصرار أن يندمج في الموضوع .. وهو يرى أن مشاكل السيد راضي تعض النظر عن شعوره الشخصي نحوه .. ليست الا تفاهات .. وتفاهات سخيفة .. وهو يحب لاسياقهم وتحمسهم المتشنج لها وكانها ماساة توشك أن تسحق الرجل المسكين .. راضي بك .. هه ! انها بلا شك غريزة القطيع والا فمادا يفعلون امام المشاكل الحقيقية .. أمام المآسي .. امام ظروفك انت مثلا يامحجوب افندى ؟

الموازين في رأى محجوب افندى قد اختلت وكل شيء يبدو في وضع انقلابي حتى الرجال يلوحون كما لو كانوا قد استووا على رؤوسهم .. وهكذا توفر له الدافع لكي يتصدى للتيار .. اية مشاكل تلك التي يتحدث عنها هذا الرجل .. راضي بك .. الولد سيتزوج بوتانية والبنت لاتريد أن تتزوج .. ماشاء الله ستتطلق السموات على الارض .. والاغبياء كالبطانة المحمورة يرددون الصدى في انفعال أحمق .. هذا الرجل الذي الناعم وصوته الضعيف المتكسر .. وبريق التلذذ في عينيه .. هذا الأفعى قد حذرهم .

ـ جرى ايه ياجماعة ؟ انتم هاتعملوا من الحبة قبة ؟

متسيب الولد والبنت يعملوا اللي عايزينه ياراضي بك وتريح نفسك .

قالها محجوب افندى وصمت الجميع . ونظر اليه السيد راضي .. بدت في عينيه

التماعات عاصية .. ولكنها مع ذلك ضعيفة .. التماعات عاصية ضعيفة .. وما لبث ان قال في برود لين : انت بتقول كده يا محبوب افندى على شان دول مش ولادك واللى ايده في الجمرة غير اللى ايده في النار .

وبقوة لاتتناسب مع الدافع أحصيت هذه العبارة محبوب افندى عصبيا هائلا فصاح حانقا : كلنا عندنا اولاد بالاستاد راضى .. وعارفين علب الاولاد .. ولا انت فاكر يعنى لعب العيال اللى بتقول عليه ده مشكلة .. تعال شوف ... وتكهرب الجو .. ولكن السيد/راضى لم يشأ أن يرد .. فقد استدار بعينيه الى الجميع وهو يبتسم ابتسامة حانية ويضم شفتيه وكأنه يعرض الامر عليهم .

وما لبثوا جميعا أن استنكروا موقف محبوب افندى .. وعجبوا له كيف يلوم السيد/راضى لا لشيء الا لانه وثق بهم وفتح لهم صدره وطلب مساعدتهم فى حل مشاكله .

وثار محبوب افندى عليهم جميعا ، ونهض عاصبا بعد ان هددهم بانه لن يريهم وجهه ثانية . ولم يحاولوا هم ان يمنعوه رغم أن السيد راضى طلب منهم فى لهجة الصدر الا يتركوا الرجل يخرج غاضبا ! قالوا له ان محبوب افندى قد عودهم بين الحين والحين أن يختلق سببا للشجار مع أى واحد منهم ليتركهم بضعة ايام يختفى خلالها ثم يعود ثانية بعد ان يكون قد نسى كل شيء .. وقال السيد راضى وهو يبتسم ساخرا :

ـ الظاهر ياجماعة لما يرجع محبوب افندى .. لازم امشى أنا ..

وقالوا جميعا كلاما كثيرا فى صوت واحد .. ولكنه لم يسمع شيئا .

* * *

منذ ايام وهو يحس بان كل شيء يقترب من النهاية ، وان شيئا فى تلك النهاية لابد يتعلق بهذا الرجل محبوب افندى .. فقد كانت له طول الاسبوع الاخير نظرات غريبة مقلقة اتجهت أعصابه الى جانب الموضوع الآخر .. موضوع رغبت ورجاء .

هذا الموضوع اتسع وتطور الى درجة مخيفة .. حتى لقد أفاق مرة فوجد نفسه يتحدث اليهما بانفعال حقيقى .. أفرغه وحمله يتساءل دائما : هل حدث ؟

ولكنه الآن كف عن التساؤل وبات يفكر فى حل للمشكلة يريحه ويخلصه من الدوامة التى تدور فى عقله وكم كان فرحه هائلا حين اكتشف ان الضباب قد غلف كثيرا من حقائق ماضيه وان الامر لايحتاج الآن الا لايام قليلة حتى يعقد كل صلة بذلك الماضى وكان يرى تلك الايام قادمة فى سرعة مخيفة .. لقد حدث الامر قبل ذلك كثيرا .. وكان فى البداية مجرد تسلية عابرة لاتكلفه الا الضحكات ثم تطور حتى بلغ هذه الصورة منذ دخل هذه المقهى وتعرف بهؤلاء الناس .. لقد كان الامر سهلا معهم فارلق هو ايضا حتى اصبح من الصعب عليه أن يتراجع الى الوراء . بل أصبح مستحيلا عليه أن يتذكر ذلك الوراء الا ان اعظم ما يخشاه الآن هو النهاية .. وهو فى أعماقه يشعره بان هذه النهاية ترتبط بعودة محبوب افندى .. لايدرى لماذا ، فقط هو لايحس بالارتياح لطريقة هذا الرجل فى معاملته لقد خرج معلنا انه لن يعود

وهم لايصدقونه ويقولون انه سيعود ولو عاد فلم يتسامح معه مطلقا .. ويجب ان يستعد لهذه العودة .. ولكن اليس من الأفضل الا يذهب هو ؟ أجل .. ماحدث للآن ، فيه الكفاية .. يجب أن يتركهم .. وقريبا جدا .. ربما بعد ايام قليلة سيودعهم .. سيقول لهم انه ينوى السفر الى القاهرة والاقامة هناك .

ولكنه قبل أن يفعل ما اعتزم .. فوجئ بعودة محجوب افندى .. ذهب الى المقهى كعادته اصيل كل يوم فوجده هناك .. يحتل المقعد الرئيسى فى وسط الشلة عند منتصف الشرفة ويضحك مع الآخرين ، ويبدو فى حالة نفسية رائعة .. ولاحظ السيد راضى ما ارتسم .. كانوا جميعا يجلسون فى حالة تأهب .. صناديق الطاولة لاوجود لها .. الطلبات وبقايا الطلبات ركنت جانبا .. القامات معتدلة وهناك شىء فى الوجوه يتأرجح بين القسمات الضاحكة ، شىء لم يدر السيد راضى كنهه ولكنه شعر به كتيار بارد يعرو اطرافه ..

أهلا أهلا .. ازيك ياراضى بك ؟

قالها محجوب افندى وهو يرنو لافراد الشلة ، ولدهشة السيد راضى البالغة يعمل لهم بعينه .. وقبل أن يجلس بادره الرجل والابتسام الغريب لايفارقه

ـ ايه اخبارك .. ازى الاستاذ رفعت .. والست رجاء !

وارتفعت الاصوات تطلب من محجوب افندى أن يمهل الرجل حتى يجلس ويلتقط انفاسه ولكنه لم يجلس .. بقى السيد «راضى» واقفا . وتأكد أن هناك شيئا خطيرا يتعرض له بصفة مباشرة ، وخرج صوته ضعيفا متهافتا

ـ فيه ايه ياجماعة .. مالكم ؟

ورد محجوب افندى متجاهلا سؤاله

ـ مقلتلناش ايه اخبار رجاء ورفعت ؟

رجاء ورفعت ؟ لما هذا الالحاح وهم يعلمون أنه سيحدثهم عن كل شىء من تلقاء نفسه ؟ .. ونظر الى الآخرين فوجدهم جميعا صامتين .. ينتظرون رده على محجوب افندى فقال

رجاء ورفعت .. مالهم .. كويسين .

وقبل أن يكمل كلماته ارتفع فى أذنيه صوت محجوب افندى وقد امتلأ بالغضب

ـ انت كداب ياراضى بك .

وجلس السيد/راضى .. انهار الثقل على كتفيه وضغطه الكلمات كريح ثائرة تصفعت حواسه وأتته النهاية التى كان يتوقعها .. وشمل الضباب كل شىء .

واندفع محجوب يتم ما لديه :

ـ قال رفعت ورجاء قال .. رجل زى ده يضحك عليكم ؟ .. المصيبة ان عمره ماعدى .. والجماعة اللى سألتهم فى المحافظة افتكروني مجنون لم قلتلهم ان له ابن فى البحرية وبنت فى الجامعة .. قالولى طول عمره عازب وساكن لوحده ولحد يعرفه غير فى الشغل .. ومن يوم ماانحال على المعاش ماشافوش وشه ورد واحد من الجالسين متفكها

ـ طيب ومالك ياسمحجوب افندى .. هو انت يعنى كنت بتتطلق قشر ..

وهمست اسارير محجوب افندى وهو يجيب

ـ وهو ده بشر ده ؟ طيب انا كنت باقشر واتنم عارفين ان انا باقشر ٠٠ لكن الراجل ده قعد ياكلكم الأوطه شهرونص ٠٠ الولد ح يحول احريحية ٠٠ والبنت مش عايره تحور ده راجل مجنون ٠٠ايه الى حلاه يالف الرواية دى كلها ؟

وطالت مناقشاتهم حتى اتفقوا على أنهم كانوا ضحية رجل خبيث استغفلهم جميعا وبحث عنه البعض ليطردوه ٠٠ وسألوا عنه الحرسون ٠٠ ولكنه تبخر !

* * *

وبعيدا ٠٠ فى أقصى الغرب من شاطىء البحر ٠٠ كان يجلس ٠٠ قريبا جدا من البحر ٠ الشارع خال مظلم ٠٠ والليل بارد قاتم ٠٠ وصوت الموج كدقات طبول معركة ٠٠ والرجل يجلس فى هدوء ويفكر فى الليل ٠٠ والبحر والدنيا ٠٠ وأشياء أخرى كثيرة ٠ وكان تفكيره منفصلا عن ذاته ولا يتجه لاى هدف ٠٠ لم يكن يفكر مثلا فى معنى جلسته ومتى سينهض ٠٠ والى أين يذهب ٠٠ كل ماق ذهنه ٠٠ افكار مجردة ٠٠ وبين الحين والحين ٠٠ يصل الى قدر من الالهام الفكرى فيقرر لنفسه ان آخر الدنيا هو البحر ٠٠ ويقرر حقائق أخرى كثيرة ثم ينساها ٠

واقتربت منه خطوات هائلة ٠٠ تدق الأرض باقدام حديد ٠٠ كان الشرطى قد لمح من بعيد كتلة مظلمة على سور الكورنيش فتوجه نحوها ولم يلتفت اليه الرجل ٠٠

ـ السلام عليكم ٠٠

ولم يرد ٠٠ الرجل حدجه بنظره واسعة يبدو فيها الخوف !

ـ ايه اللى مقعدك هنا يا حضرة ؟

وسمع السؤال وفهمه ولكنه لم يدر لماذا يجيب ٠٠ هل يجب ان يكون هناك سبب لوجوده هنا ، وصاح به الشرطى ! ما بتردش ليه يا افندى ٠ اسمك ايه ؟

وظهر على وجه الرجل تعبير من الدهشة تحول بعد لحظة الى فرح حقيقى

ـ اسمى ٠٠٠ اسمى ٠٠٠ اسمى رفعت ٠

ـ وجاءة أشرق وجهه ـ

واقترب منه الشرطى ٠٠٠ وسأله فى صوت مستريب ! بتشتغل ايه يا مى رفعت ٠

ـ ظابط ٠٠ ظابط فى البحرية ٠٠٠ وتراجع الشرطى قليلا ثم انطلق ضاحكا ٠٠٠ وأثارت ضحكاته الرجل فصاح ! ايه ؟ ٠٠٠ انا مش كداب ٠٠ مش كداب ٠

ثم خفت صوته وارتد الى داخله حتى أصبح تشيطا مكبوما ٠٠ وهز الشرطى رأسه وكأنه فهم شيئا ثم قال ! يعنى كان لازم تتقل العيار كده ٠٠٠ قوللى انت ساكن فين ٠٠

ونظر اليه الرجل فى حيرة عميقة ٠ وراح يتمتم ! بيتى ٠٠ بيتى ؟ موش عارف ٠٠٠ مش عارف وكأنما كان الشرطى ينتظر الاجابة فمد يده واحاط كتفى الرجل بذراعه ! طيب تعالى معايا ٠٠

ـ فين ؟ ٠٠

وأجابه ضاحكا فى سخرية !

ـ حتتمسح تموية ٠٠٠

واستسلم له كطفل صغير ٠٠ وسارا معا ٠٠ الشرطى يعجب لأن رائحة الخمر لا تفوح من فم الرجل ٠٠ وهو قد عاد للتفكير فى الليل ٠٠٠ والبحر ٠ والدنيا ٠